آثار الإمام

عبد الحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الإصلاح - السياسة - الاجتماعيات - التاريخ
البرقيات والاحتجاجات - الفواتح والخواتم

الجزء الخامس

عاصمة الثقافة العربية

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع



الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

« ... ليس ما ندعو إليه ونسير على مبادئه من الإصلاح بأمر يخص المسلم الجزائرى ولا ينتفع به سواه ، كلا ، فإن صحة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق ، واستقامة العمل ـ وهذا هو الإصلاح كله ـ مما يشترك فى الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بنى الإنسان . وإنما نذكر المسلم الجزائرى لأنه هو الذى قدر أن يكون منا ونكون منه كما يكون الجزء من كله والكل من جزئه ، فحاجته أشد ، وحقه أوجب ... » (1) .

٭ ٭ ٭

« بقدر ما كان تمسك الأمة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخمود والخرافات والأوضاع الطرقية المتحدرة للفناء والزوال ، حتى أصبح القطر الجزائرى كله يكاد لا تخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلى الإصلاح وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولى والعملى ، وأصبحت البدع والضلالات تجد فى عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها » (2) .

« عبد الحميد بن باديس »

(1) و (2) ش ـ ج 1 م 12 محرم 1355 هـ ـ ابريل 1936 م .

1 مـــن هـــم الوهابيـــون ؟

2 ـ ما هى حكومتهم ؟ 3 ما هى غايتهم السياسية ؟

4 ـ ما هو مذهبهم ؟

— 1 —

هاته أسئلة طرقت أسماعنا فى هاته الأيام كثيرا،وسمعنا الخطأ فى الجواب عنها كثيرا ، ولا عجب فى كثرة السؤال عنهم وقد تواترت أعمالهم السريعة المدهشة ـ هاجموا الأردن وأخضعوا الحجاز وأجلوا الحسين وأتباعه بعد ما ثلوا عرشه غير مبالين بأحلافه الانكليز . كل هذا فى مدة قصيرة من الزمن مع بعد المسافة وصعوبة الطريق . ولا عجب كذلك فى أن يخطىء الناس فى الجواب عنهم ، فإنهم قوم ظهروا فى القرن الماضى بمظهر صلب شديد على خصومهم من الترك والعرب حتى ملكوا مع نجد الحجاز واليمن،ناشرين دعوتهم الدينية بحماس،منفذين مبادئهم بصرامة وعزم شديد، وما ردهم الجيش المصرى ، إذ باتفاق العرب ضدهم،وبعد جهد جهيد . فقتل زعيمهم ابن السعود بالأستانة بعد ما تفرقت جنوده وشرد آله ، فانزوى الوهابيون من يومئذ بنجد واختفت أخبارهم عن العالم ، وصار من يريد معرفتهم لا يجد لها موردا إلا كتب خصومهم الذين ما كتب إكثرهم إلا تحت تأثير السياسة التركية التى كانت تخشى من نجاح الوهابيين نهضة العرب كافة .

وأقلهم من كتب عن حسن قصد من غير استقلال فى الفهم ولا تثبت فى النقل فلم تسلم كتابته فى الغالب من الخطأ والتحريف .

وأنّى تعرف الحقائق من مثل هاته الكتب أو تلك،أم كيف يؤخذ حقيقة قوم من كتب خصومهم،ولا سيما إذا كانوا مثل الصنفين المذكورين.ولهذا رغب مني بعض من يجرى في عروقهم دم العرب، وبعض من يهتمون بأمر الأمة العربية ذات التاريخ الماجد العظيم ، أن أجيب عن هذه الأسئلة خدمة للعلم،وإظهارا للحقيقة،فأجبت بالأجوبة الآتية مستصدرا ما كان منها دينيا من وسائل علمائهم المطبوعة بمطبعة المنار الملخصة فى مجلته . ومعتمدا فى غير ما كان دينيا على ما كتبه الثقاة من كتاب العربية،مسلمين وغيرهم،فى الجرائد والمجلات،وما عربوه عن ثقاة كتاب الغربيين،غير متعصب « علم الله » لا لهم ولا عليهم،وأعوذ بالله أن أكون لشىء من المتعصبين . ولا قائل « إن شاء الله تعالى » إلا ما أعلم ، وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ .

(١) هم أتباع محمد بن عبد الوهاب التميمى النجدى،المتوفى سنة ست بعد الألف والمائتين من الهجرة ، وقد ناهز المائة،وهم عرب من أصرح العرب أنسابا وأشدهم بأسا وأرسخهم فى صفات العروبية وأنقاهم من الدخيل . أهل ذكاء وسرعة خاطر ، وحدة ذهن،شنشنة آبائهم الأولين . ومن صفاتهم الممتازة إباؤهم ، وشجاعتهم،وصبرهم العجيب . فكان الجريح منهم فى هذه الحرب حين إجراء العمليات الجراحية لا يتوجع ولا يتألم ، ولا ينقبض له وجه،كأنهم يعملون فى جسم غيره . يبلغ عددهم المليونين،لا خلاف بينهم ولا تنازع ولا تباغض،يطيعون رؤساءهم وخصوصا سلطانهم طاعة عمياء،يستبسلون فى الحرب ويقدمون إقدام من يتيقن أن وراء الموت حياة خيرا من هذه الحياة ، ولا يرجعون إلا بأمر قوادهم ولو فنوا عن آخرهم .

يقل بينهم من لا يحسن القراءة والكتابة،ويكثر فيهم جدا حفظة القرآن،وكلهم على علم بالضرورى من عقائد الإسلام وأصول

مبادئه ، وآدابه ، شديدو التمسك بأهداب الدين وتباعد عن كل ما أحدث فيه .

(2) إمامهم الحالي هو عبد الرحمن آل فيصل آل سعود،لكن القائم بأعباء الملك هو ابنه السلطان عبد العزيز،وهو المباشر حقيقة للسلطة والإدارة،وصف هذا الأمير الأستاذ الريحاني بقوله : « طويل القامة مفتول الساعد شديد العصب متناسق الأعضاء،وهو أسمر اللون أسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية،له من السنين سبع وأربعون ، وله في التاريخ ـ تاريخ نجد الحديث ـ مجد إذا قيس بالأعوام تجاوز السبع والاربعين والمائة . كبير القلب والنفس والوجدان،خلو من الادعاء والتصلف،خلو من التظاهر الكاذب » (1) . ووصفه مسترارنيست برنيك في جريدة نيويورك بقوله : « بطل من أشد الأبطال الذين أنجبتهم الأمة العربية،صلب العود في مكافحة الأعداء ، وكريم الأخلاق متى قهرهم ، شديد التمسك بأهداب الدين،وفي مقدمة الذابين عن عقائد الإسلام الأصلية . قد أنفق الشطر الأكبر مما مضى من حياته على صهو الجياد ، فكان له من ذلك رياضية جسدية جعلته قوي البنية. وهو جامع بين جلال وجمال أمير شرقي»(2)

أسلافه كلهم ذوو شهرة عظيمة في جزيرة العرب،وبيته عريق في إمارة نجد حتى سقط في القرن الماضي وحلت محله أسرة آل رشيد،ونفي هذا الأمير إلى الكويت،لكنه بهمته وعزيمته ، وشجاعته وحسن تدبيره تفلت من قيود الأسر وجمع حوله جندا فتح به « الرياض » عاصمة ملكه،وأعاد عائلته إلى ملكها القديم. ثم ما برح يتربص بآل رشيد الأحايين ، وينتظر الفرصة حتى سنحت

(1) عن الهلال .
(2) عن الهدى .

له فأوقع بهم فى أثناء الحرب الكبرى وقضى على إمارتهم، وساقهم إلى عاصمته وهم عنده الآن أسرى مكرمون. وامتدت مملكته بعد أن كانت محصورة فى نجد من حدود الحجاز إلى الخليج الفارسى ومن الربع الخالى إلى الجوف .

يسوس السلطان عبد العزيز هذه المملكة الواسعة بسياسة العدل التام بين القريب والبعيد، الجليل والحقير، وينفذ أحكام الشرع بكل تدقيق بلا هوادة ولا محاباة. ومن كلماته فى هذا الباب : « العبد ، والأمير، عيننا على الاثنين حتى ننصف دائما الاثنين ونعدل بينهما ، ومن لا ينصف بعيره ، لا ينصف الناس » فأنتج له ذلك فى مملكته الأمن التام الذى لا تجده فى البلاد المتدنة ، وقد عجزت فرنسا بجيشها اللهام عن إقامته اليوم فى ربوع الشام .

ويجرى فى سياسته على أصل الشورى الذى أوجبه الإسلام، فلا يفصل فى الأمور العظيمة إلا باستشارة العلماء ، والأمراء، والأعيان، ورؤساء الأجناد، كما فعل عندما أراد غزو الحجاز فقد عقد لذلك مؤتمرا فى ذى القعدة تناقلت حديثه جرائد الشرق ، والواقف عليه يعلم بعد نظر أعضائه وأدبهم الإسلامى ، والمحاورة بالادب الذى يعز وجوده فى مجالس النواب الاوروبية التى كثيرا ما تخرج عن الكلام إلى اللكام، ويحمى مملكته جيش منظم متأهب على الدوام، له جميع الصفات المعنوية التى يحاز بها الانتصار من قوة الإيمان، ومتانة الاتحاد، وتمام الانقياد، وتحمل المشاق ، وشدة الثبات فى مواطن النزال .

« جاءوا هذه المرة إلى الشرق العربى منقسمين إلى فرق، وكل فرقة فيها المحاربون وفيها من يعنى بتموينهم وحمل ذخائرهم وأثقالهم، وفيها من يعنى بالجرحى، وفيها الخطباء والأئمة » .

وعن السياسة ، ويقول العارفون:إنـــه جيش يمثل جيوش العرب الفاتحين الأولين مع نظم العصر وأسلحته (1) .

(1) النجاح ـ العدد 24/179 أكتوبر 1924 م .

1 ـ من هم الوهابيون ؟ 2 ـ ما هي حكومتهم ؟

3 ـ ما هي غايتهم السياسية ؟ 4 ـ ما هو مذهبهم ؟

ـ 2 ـ

والحكومة النجدية تسعى بكل قواها في تحضير البدو ، وتثقيف عقولهم وإدخال الإصلاح الذي يتفق مع حالتهم الاجتماعية،وتعتني اعتناء زائدا بالحالة الصحية ، ففي الرياض عاصمتهم مستشفى عظيم تمتد فروعه إلى كثير من البلاد النجدية . وكذلك بالشؤون الزراعية والتجارية ، والمالية،فكلها متقدمة تقدما حثيثا . وتحافظ كل المحافظة على سلامة الأخلاق والآداب، فلا سوء ، ولا فحشاء ، ولا منكر ، مما غرقت فيه أوروبا بمدنيتها المادية الملوثة بالأقذار .

(3) قام الوهابيون في حروبهم بالقرن الماضي لنشر دعوة دينية إصلاحية فخابوا،فانكمشوا بنجد أمنع جزيرة العرب وأبعدها عن مطامع الاستعمار ـ ولم تستطع الدولة العثمانية إخضاعهم، فبقوا في منعتهم مستقلين ، وكانت انقلترا تصانعهم بدفع راتب شهري وافر لسلطانهم ليكفوا أيديهم عما تحت يدها من سواحل الجزيرة . ولما جاءت الحرب الكبرى كانوا على الحياد التام في الظاهر، وقاموا للدولة العثمانية في الباطن بأجل خدمة في تلك الظروف ، فربطوا المواصلة بين جنودها ، وجنودها بفلسطين وسوريا والعراق لما خرج عليها الحسين بالحجاز، فكانت قوافل التموين تنقطع داخل

الجزيرة تحت خفرهم رغما عن احتجاج الانكليز وذهبه الرنان ، وهاك شهادة رسمية لما قام به ابن السعود مع عدوه في حياده الظاهري :

قال جمال باشا في مذكراته ص 282 من الطبعة المصرية للتعريب عن أحمد شكري « ولم يكن في استطاعة الأمير ابن السعود أن يمد لنا يد المساعدة المباشرة لقربه من الانكليز الذين كان في استطاعتهم إيصال الأذى إليه . إلا أنه كان شخصيا نافعا جدا لنا،إذ أرسل الجمال للجيش،وسمح بتصدير التجارة إلى سوريا » .

انتهت الحرب الكبرى وكان حظ العرب منها بتفرق كلمتهم وتنازع أمرائهم في داخل الجزيرة ووفودهم تحت نير الاستعمار الجائر في سوريا والعراق وفلسطين . قد علم الناس كلهم أن الحسين بن علي هو السبب في الأمرين بخروجه من الجماعة ومحاولته جعل جميع الأمراء تحت سلطانه بمعونة الانكليز،أو بالحرى جعل الأمة العربية جمعاء تحت امبراطوريتهم،وبهاته المحاولة نفسها خاب مؤتمر الكويت الذى انعقد بين أمراء العرب أخيرا لعقد حلف بينهم على قدم المساواة التى يأباها عليهم حسين . لم يبق بعد هذا كله من يرجى للنهضة العربية وزعامة العرب حقيقة إلا ابن السعود بشخصيته البارزة وصفاته الممتازة وسيرته الحكيمة العادلة وجيشه المرهوب ، فقام هذا الأمير وغايته الوحيدة التى جعلها نصب أعينه هى تطهير جزيرة العرب من الأجانب وأذنانهم . وفى مقدمتهم الطاغية حسين ، ثم جميع الأمراء المنخدعين وجمع شمل الأمة العربية بعقد حلف بين أمرائها فى الجزيرة وخارجها . والواقف على منشوراته العامة ومداولاته مع أمراء الجزيرة يعلم هذا ويتحققه ، فاخذ يسعى لهذه الغاية العظيمة ، ويهيء لها الأسباب، فرفض المرتب الانكليزى حتى لا يبقى لعدو يد عليه .

قالت جريدة دايلي مايل «إن ابن السعود نفسه كانت له جراية من الحكومة البريطانية قدرها 5000 ليرة انكليزية في الشهر ، ولكنها قطعت عنه منذ عدة شهور » . (1)

ونشر منشورات في الموضوعات العامة بين فيها سياسته ورغبته في توحيد العرب وترقيتهم ، وأن بلاده مفتوحة لأهل العلم والعمل من أبناء العرب ، وفعلا قد وفد عليه العدد الكثير من الشبان المتعلمين من مصر والشام والعراق ، وأصبح متصلا بالعالم الخارجي اتصالا أدبيا مكينا ، بعد ذلك الانعزال التام،فبرهن بهذا على أنه سائر بأمته في الطرق التي تسير عليها الأمم الراغبة في الحياة . (طرق العلم والتسامح ، وربط العلائق الودية السلمية مع الناس) . ولم يهجم هجومه الأخير على الحجاز إلا بعد اتفاقه على ذلك مع لجنة الخلافة بالهند ، كما هو مصرح به في خطابها الذي وجهته إليه ونشرته الأهرام،ومع حزب الاستقلال العربي بمصر ، ورؤساء قبائل الحجاز أنفسهم ، وبعد إنذار حسين وإبايته من الامتثال ، ثم ما وجه حملته على الحجاز حتى أرسل جندا إلى شرق الأردن فاصطدم بالقوات الانكليزية مصادمة عنيفة برهنت على أنه لا علاقة له بهم ، ولما دخل مكة وطرد آل حسين منها طلب من جمعيات الهند ومصر أن يأتمروا لتعيين شكل حكومة الحجاز،فبرهن بذلك على أنه لم يغز للغلبة والاستلاء ، وإنما حارب وتحمل المشقة لتطهير الحرمين الشريفين من الخائنين الآثمين ، وامتثالا لرغبة عموم المسلمين .

وقد جاءت الأنباء بتولية الشريف علي حيدر على الحجاز ولا يتخذها إلا ولاية وقتية ريثما ينعقد مؤتمر الخلافة القادم فيرى رايه الفاصل .

(1) عن الزهرة .

بان لنا من جميع ما تقدم (1) أن الأمة النجدية لها من الصفات النفسية والأدبية والاجتماعية ما تستحق به السيادة والاستقلال والتقدم ، والقيام بجلائل الأعمال (2) وأن الحكومة النجدية مرتكزة على نشر الأمن والعدالة والتسامح وحب المعارف، وهذه الأربعة كما قال الأستاذ (فلندر زبترى) العالم المؤرخ المشهور هي أصول الحضارة والشروط اللازمة للتمدن الدائم الصحيح (3)،وان حركة الوهابين اليوم حركة سياسية إصلاحية ترمى إلى توحيد العرب بربط حلف بين أمرائهم المعتبرين،وتثقيفهم بالعلوم، وتفهيمهم بالحكمة حقيقة دينهم العظيم،حتى يصبحوا بإذن الله تعالى أمة حية تعرف ما لها من الحق في الوجود وما عليها من الواجب نحوه . ويمثلوا حقيقة تلك الأمة الكريمة التى دوخت العالم بسياستها ، ونشرت فى أقطاره خطها ولسانها،وأنارته بدينها ومدنيتها ، وكانت الواسطة الأمينة الفعالة بين التمدن القديم ، والتمدن الحديث ، ويرفعوا منار الإسلام بمدنيته الحقة الراقية فى هذا الزمان كما رفعوه كذلك فى سالف الأيام . ويجب أن نعلن بأن الفضل الأول فى هذا كله للرجل الكريم ، والبطل العظيم السلطان عبد العزيز عبد الرحمن آل فيصل آل سعود،الذى لا نشك أنه سيكون له « إن شاء الله تعالى » فى تاريخ العرب ما كان لمصطفى كمال فى تاريخ الترك ، فالأمة العربية اليوم تعتبر هذا الأمير العظيم زعيمها الحقيقى الوحيد ، وتعلق عليه الآمال الكبار ، والعالم الإسلامى ينظر إليه بعين العطف والاعتبار،شاكرا له خدمته الجلى وسلوكه السياسى النظيف ومقصده السامى الشريف ومقدار منزلته العالية التى نالها فى عين العالم عن جدارة واستحقاق (1) .

(3) عن الزهرة .

(1) النجاح ـ العدد 180 ـ 31 أكتوبر 1924 م .

1 ـ من هم الوهابيون ؟
2 ـ ما هى حكومتهم ؟ 3 ـ ما هى غايتهم السياسية ؟
4 ـ ما هو مذهبهم ؟

- 3 -

(4) قام الشيخ محمد عبد الوهاب بدعوة دينية ، فتبعه عليها قوم فلقبوا بالوهابيين . لم يدع إلى مذهب مستقل فى الفقه ، فإن أتباع النجديين كانوا قبله ولا زالوا إلى الآن بعده حنبليين،يدرسون الفقه فى كتب الحنابلة ، ولم يدع إلى مذهب مستقل فى العقائد ، فإن أتباعه كانوا قبله ولا زالوا الى الآن سنيين سلفيين،أهل إثبات وتنزيه،يؤمنون بالقدر ويثبتون الكسب ، والاختيار ، ويصدقون بالرؤية ، ويثبتون الشفاعة ، ويرضون عن جميع السلف ، ولا يكفرون بالكبيرة ، ويثبتون الكرامة .

وإنما كانت غاية دعوة ابن عبد الوهاب تطهير الدين من كل ما أحدث فيه المحدثون من البدع ، فى الأقوال والأعمال ، والعقائد، والرجوع بالمسلمين إلى الصراط السوى من دينهم القويم بعد انحرافهم الكثير ، وزيغهم المبين .

لم تكن هاته الغاية التى رمى إليها بالقريبة المنال ولا السهلة السبل . فإن البدع والخرافات باضت وفرخت فى العقول ،وانتشرت فى سائر الطوائف وجميع الطبقات على تعاقب الأجيال فى العصور الطوال . يشب عليها الصغير،ويشيب عليها الكبير ، أقام لها إبليس

من جنده من الجن والإنس أعوانا ، وأنصارا ، وحراسا كبارا من زنادقة منافقين،ومعممين جامدين محرفين ، ومتصوفة جاهلين، وخطباء وضاعين .

فما كانت – وهذا الرسوخ رسوخها ، وهذه المنعة منعتها – لتقوى على فعلها طائفة واحدة « كالوهابيين » في مدة قليلة،ولو أعدت ما شاءت من العدة ، وارتكبت ما استطاعت من الشدة .

قام الوهابيون لتحقيق هذه الغاية بحماس وشدة وجهل في كثير منهم ، فارتكبوا في سبيلها أمورا نفرت منهم النفوس .

وأتى جهالهم شنائع كانت من النكارة بمكان ، ووجدها أضدادهم سلاحا قويا في تشويه سمعتهم إلى اليوم ، وأسخطت عليهم العالم الإسلامي كله ، فكانت الخيبة تصيبهم من جراء سلوكهم القاسي ، وإن كانت غايتهم من أنبل الغايات . إن الغاية التي رمى إليها ابن عبد الوهاب ، وسعى إليها أتباعه ، هي التي لا زال يسعى إليها الائمة المجددون ، والعلماء المصلحون في جميع الأزمان،فلها ألّف أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم وسراج المريدين ، وألف الإمام الشاطبي الاعتصام ، وألف الشيخ ابن الحاج المدخل ، وغيرهم من الأئمة وكتبهم كثير ، وإليها يسعى حزب الإصلاح المعتدل الذي أسسه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ورفع لواءه الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار .

إن الدعوة إلى الحق لا تنجح إلا إذا كانت كما أمر الله تعالى ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

ولم تكن في الوهابيين كفاءة للقيام بتلك الدعوة العظيمة على هاته الطريقة الحكيمة فخابوا ، وبقيت غايتهم مقصورة عليهم ، ونهض بأعبائها الأستاذ الإمام والشيخ رشيد وحزبهما،فملأوا بها

الأرض وانتشر مؤيدوها فى العالم الاسلامى أى انتشار، ولا يزالون بحمد الله فى ازدياد .

بان بهذا أن الوهابيين ليسوا بمبتدعين لا فى الفقه ولا فى العقائد ، ولا فيما دعوا إليه من الإصلاح ، وإنما تنكر عليهم الشدة والتسرع فى نشر الدعوة وما فعله جهالهم

وهنا لا أرى بدا من ذكر مسألة هى أعظم ما أظهروا فيه شدتهم وهى مسألة زيارة القبور ودعاء أهلها والبناء عليها .

زيارة القبور مشروعة ولا خلاف فى ذلك بين أحد من المسلمين، وذلك مأخوذ من قوله وفعله صلى الله عليه وسلم ، المروي فى الصحيح ، ودعاؤه لما خرج للبقيع ، مروى ثابت كذلك ولكن.

(1) هل تشد لزيارتها الرحال ؟ هذه مسألة اختلف فيها قديما ، والوهابيون من المانعين،وهى بعد مسألة علمية ظنية لا تستوجب تنسيقا ولا تبديعا .

(2) وهل يدعى صاحب القبر كأن يقال مثلا ، يا فلان اقض لى حاجتى ! هذا شىء لم يثبت عن أحد من السلف أنه فعله . والدعاء عبادة (هذه مقدمة صغرى ، وهى لفظ حديث) وكل عبادة لا تكون إلا لله (هذه مقدمة كبرى ودليلها قطعى من الآيات العديدة) فالدعاء لا يكون إلا لله .

(هذه نتيجة هذا القياس من الضرب الأول من الشكل الأول) فلا نرى بعد هذا وجها لأن ينكر عليهم . والسكوت عن هذا أو نحوه أدى العامة إلى الغلو فى الأولياء رضى الله تعالى عنهم ، غلوا أنطقهم بألفاظ الشرك ، وصدع منهم عقيدة التوحيد التى هى أساس الإيمان. فإذا دعوا قالوا يا رب يا فلان. وإذا أصابتهم نعمة من الله قالوا هذه من الله ومن فلان ، وإذا حلف أحدهم فإنه يحلف بالله وبفلان ، بل بلغوا إلى ما هو أشنع وأبشع . يأبون من الحلف كذبا

بشيوخهم ، ويكذبون فى الحلف بالله ، والنهي عن الحلف بغير الله تعالى معلوم مشهور .

(3) وهـل يبنى عـلى القبور ، وتتخـذ عليهـا المساجد ، قـد ثبت عـن النبـى صـلى اللـه عليه وسلـم ثبـوتا لا شك فيـه ، النهى عن البناء عـلى القبور ، ولعن مـن اتخذوها مساجد،ونص الفقهاء مـن المذهب عـلى المنع مـن ذلك والأمر بهدم ما يبنى . (راجع كتاب الزواجر لابن حجر التيمى) .

وأساطين هذه البدعة وأنصارها هـم أرباب الزوايا ، وشيوخ الطرق . فلذا أردنا أن ننقل لهم كلام رجل عظيم شهير فى الطريقة الشاذلية ، بل هو شيخ طريقة ينسب إليه هو الشيخ أحمد زروق ، قال في شرحه على رسالة ابن أبى زيد ج 1 ص 28 من الطبعة الجمالية : «اتخاذ المساجد على مقبرة الصالحين ووقد القناديل عليها دائما أوفي زمان بعينه والتمسح بالقبر عند الزيارة ، وهو من فعل النصارى ، وحمل تراب القبر تبركا به، كل ذلك ممنوع بل يحرم» اهـ. ونقله الرهونى وسلمه (1) إننا والله لا نحاج إلى قول أحد مع ثبوت الحديث الشريف ، وإنما نجارى حالـة الناس الذيـن هجروا السنـة حتى صارت بينهم غريبة ، وأصبحوا منها بعيدين ، وهل بعد هذا وذاك نرى إخواننا أرباب القباب المضروبة ، والهياكل المنصوبة راجعين عـن الضلال البعيد ؟ إنى أشك فى ذلك بـل لا أكاد أطمع فيـه . فاللهم اهدنا إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم (1) .

---

(1) النجاح : العدد 7/181 نوفمبر سنة 1924 م .

إنكار العلماء المتقدمين

على المبدعين المبتدعين

كلما قام دعاة الإصلاح بالإنكار على البدع الفاشية والضلالات الرائجة ، بينوا قبحها وضررها بالبراهين الساطعة ، وأفحموا أهلها بالأدلة القاطعة ـ صاح المتعيشون عليها فى أتباعهم المغترين بهم : « لو كان ما نحن عليه باطلا لأنكره العلماء المتقدمون قبل أن ينكره هؤلاء « العصريون »،لكن المتقدمين رحمهم الله رأوه وسكتوا عليه،وأقروه ورضوا به،ومضى على ذلك الزمن الطويل وعاش عليه الجيل بعد الجيل » وقالوا مثل ما قال الأولون : « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ »،« إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » ولما كان هذا قد يغر الجاهل وشبه الجاهل فيحتسب أن الأمر كما ذكروا،وأن العلماء المتقدمين سكتوا وما أنكروا ـ أردنا أن ننقل لقراء « السنة » بعضا من إنكار أهل العلم على هؤلاء المتسمين بالفقراء،المدعين لطريقة الزهد،المتمسكين بالبدعة،ليعرفوا سنة العلماء فى الرد عليهم،والتقبيح لحالهم، والتحذير من ضلالهم،فيعلموا أن العلماء الإصلاحيين المعاصرين ما جاءوا إلا بما يفرضه عليهم الدين من نصح المسلمين،وارشاد الضالين،والذب عن سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله عليه وعليهم وسلم ـ .

إنكـار الامـام القشـيرى
صاحـب الرسالـة القشـيريـة
مـن أهـل القـرن الخامـس

قال فى وصف المتشبهين بالصوفية المنتحلين لطريقتهم المباينين لسلوكهم : « فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضـوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهـوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة وأصحاب السلطـان .

إنكار أبى بكر الطرطوشى المالكى
من أهل القرن الخامس والسادس

قال فى خطبة كتابه الذى ألفه فى إنكار البـدع والمحدثات، وعندنا نسخة خطية مكتوبة نحو القرن العاشر :

« ثم ازداد الأمر إدبارا،حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المؤمنين ـ وفقنا الله وإياهم ـ استنزلهم الشيطان واستغـوى عقولهـم فى حب الاغانى واللهو وسماع الطقطقة والتغبير واعتقدته مـن الدين الذى يقربها إلى اللـه عز وجل،وجاهرت به جماعة المسلمين، وشاقت به سبيل المؤمنين ، وخالفته الفقهاء والعلماء وحماة الدين، « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً » فرأيت أن أوضح

الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التى تضمنها كتاب الله تعالى وسنة رسوله،وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها،حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها،والله ولي التوفيق » .

إنكار الإمام أبى حيان الأندلسى
من أهل القرن السابع والثامن

قال فى الجزء الرابع من تفسيره الكبير ص 310 ـ وهو يصنف متصوفة زمانه مما ينطبق على أمثالهم فى زماننا : « ولو عاش الحسن إلى هذا الزمن العجيب الذى ظهر فيه ناس يتسمون بالمشايخ، يلبسون ثياب شهرة عند العامة بالصلاح،ويتركون الاكتساب، ويرتبون لهم أذكارا لم ترد فى الشريعة يجهرون بها فى المساجد، ويجمعون لهم خداما يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم ونتش أموالهم،ويذيعون عنهم كرامات،ويرون لهم منامات يدونونها فى أسفار،ويحضون على ترك العلم والاشتغال بالسنة،ويرون الوصول إلى الله بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأت بها كتاب منزل ولا نبى مرسل ، ويتعاظمون على الناس بالانفراد على سجادة ، ونصب أيديهم للتقبيل ، وقلة الكلام ، وإطراق الرؤوس ، وتعيين خادم يقول : « الشيخ مشغول فى الخلوة » رسم الشيخ ، قال الشيخ رأى الشيخ ، الشيخ نظر إليك ، الشيخ كان البارحة يذكرك ، إلى نحو من هذه الألفاظ التى يخشون بها على العامة ، ويجلبون عقول الجهلة ، هذا إن سلم الشيخ وخادمه من الاعتقاد الذى غلب الآن على متصوفة هذا الزمان من القول بالحلول أو القول بالوحدة ، فإذ ذاك يكون منسلخا عن شريعة الإسلام بالكلية،والعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرواتب،وتبنى لهم الربط،وتوقف عليهم

الأوقاف،ويخدمهم الناس فى عروهم عن سائر الفضائل ، ولكن الناس أقرب إلى أشباههم منهم إلى غير أشباههم.وقد أطلنا فى هذا رجاء أن يقف عليه مسلم فينتفع به .

إنكار الإمام أبى إسحاق الشاطبى المالكى من أهل القرن الثامن

قال فى كتاب الاعتصام (ا : 216) يصف « فقراء » زمانه بالأندلس : « فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهى التى حرمها الله،أهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف وقلما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة فى الصلاة إلا على اللحن فضلا عن غيرها،ولا يعرف كيف يتعبد،ولا كيف يستنجى أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة ، وكيف يعلمون ذلك وقد حرموا مجالس الذكر التى تغشاها الرحمة،وتنزل فيها السكينة،وتحف بها الملائكة،فبانطماس النور عنهم ضلوا فاقتدوا بالجهال أمثالهم، وأخذوا يقرأون الأحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم لا على ما قال أهل العلم فيها،فخرجوا على الطريق المستقيم ».

إنكار الإمام القلصادى المالكى من أهل القرن التاسع

قال فى كتابه : « لباب الأزهار اليمنية على الأنوار السنية » ص 35 : « وكم من سنة دثرت،وبدعة أقيمت،وتوصل عليها بدلائل، وذلك بسبب علماء السوء،لأن البدعة فى الغالب لا يحدثها علم، لكن إذا وقعت ينصرها من كان له غرض فاسد،ويقيم الدليل على

صحة ذلك،ويحدث لذلك أتباع على ما هو مشاهد معلوم » وقال فيه ص ١٥١ : « وليس المراد بالذكر إدامته باللسان وعدم التحلى بـه، وذلك من تلبيس إبليس،ويحسبون أنهم على شيء » .

إنكار الشيخ عبد الرحمن الأخضرى الجزائرى
من أهل القرن العاشر

لهذا العالم الصالح قصيدة تعرف بالقدسية مشهورة،وصف فيها هذه الطائفة وصفا كاسفا فاضحا،صورهم على الصورة التى يعرفها منهم كـل من عرفهم،ولا يستطيع أن ينكـرها أحـد حتى المتعصب لهم ، ومما قال فيهم :

وظهرتْ فى هـذِهِ البلادِ طائفةُ البلـعِ والازدِرَادِ

... الخ

إنكار الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطينى
من أهل القرن الحادى عشر

قال فى كتابه « مشهور الهداية ، فى التعريف بحال من ادعى العلم والولاية » :

« فلما رأيت الزمان بأهله تعثر،وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر،وسحائب الجهـل قد أضلت،وأسواق العلـم قـد كسـدت واضمحلت،فصار الجاهل رئيسا،والعالم فى منزله يدعى من أجلها خسيسا،**وصاحب أهل الطريقة** قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى عليه فائحة ــ تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية ، وحالات كانت قدما للسادات الصوفية،

فأوهموا على العامة بأسماء ذهبت مسمياتها،وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصار،لبسوا بانتعالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها ـ وربما صارت **الطائفة البدعية** مقطعا للحقوق،وقسما يقسم بهم فى البر والعقوق ـ أعلنوا بأن سوابق الأقدار منوطة بإرادتهم،وتأثيرات الأكوان **صادرة عن اختيارهم**،فزادت بهم العامة شغبا إلى شغبهم،وتشويشا دخل فى قلوبهم،واتخذت أتباعهم ألقابا باسم الشيخوخة ـ وزادت فى إفصاح أحوالهم والحمل على بثها وإبدائها ما أحدثوه من أن من مات منهم بنوا عليه وشيدوا بناءات،وجعلوا عليهم قبابا من العود وألواحا منقوشة بأسمائهم وما اختاروا من الالقاب التى لا تصلح لهم ـ وهى من أوصاف ساداتنا العلماء العاملين والصلحاء الفاضلين،وصيروا ذلك لغابر الدهر بحيث أنهم لبسوا على العامة فى الحياة وعلى من سيكون بعد الممات».

إنكار الشيخ مصطفى العروسى
من أهل القرن الثالث عشر

هذا العالم هو محشى شيخ الإسلام زكريا شارح الرسالة القشيرية قال ـ ينقل الأستاذ الميلى فى تاريخ الجزائر (2 : 263) : « إنى بذلا للنصيحة أحذرك من متابعة مشايخ هـذا الوقت،ممن لا يثمر الاجتماع بهم خلاف المقت،إذ هم قطاع طريق الله على عباده،وأعداء الأولياء الداعين إلى سبيل رشده،حيث لا همة لهم إلا جمع الغرض الفانى،ولا سعي لهم إلا فى تجريد القاصى والدانى،أزاحهم الله من جميع البلاد،وأراح منهم الدواب والعباد ... فعليك يا أخى فى مثل هذا الوقت بخاصة نفسك،وتباعد عمن بهم تزيد قاذورات رجسك،وتابع هدى سيد المرسلين،وإمام كل النبيين والمرسلين، فكافيك التمسك بالقرآن،والتمسك على طريق سيد ولد عدنان،

ولا تغرنك ـ لو فرض ـ خوارق العادات،فإنها كما تكون للكرامة توجد لقصد الإهانة ، فهذه وصيتى إليك قد ذكرتها شفقة عليك، دعاني لذكرها رعاية المقام،فتقبلها منى وعليك السلام » .

بان بهذا لمن عرف وأنصف أن الحق لم يعدم أنصارا فى سائر الأزمان،وأن الارض لا تخلو من قائم لله بحجة على مر الأيام،وأن الطائفة القائمة على الحق التى تحيي من سنة النبى صلى الله عليه وسلم ما أمات الناس لن تزول من على وجه الارض،ولا تزال ظاهرة لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى يأتي أمر الله،والحمد لله رب العالمين (1) .

(1) (السنة) السنة الاولى العدد 4 ، 6 محرم 1352 هـ ، 1 ماى 1933 م .

طلب الآخرة وحدها مذموم فى الإســلام

غلو الصوفية بجعل الكمال عدم طلب الدنيا والآخرة

كنا بينا نحن وغيرنا على صفحات هذه المجلة أن العبادة الشرعية موضوعة على الرجاء والخوف،وأن الطمع فى فضل اللــه لا ينافى إخلاص العبادة لــه ، وذكرنا الأدلة الكثيرة على ذلك مــن الكتاب والسنة،وكانت أدلة ثابتة صريحة غير قابلة للتأويل ، وبينا بها أن من زعم أن العبادة تتجرد عــن الرجاء والخوف ، فقد زعــم باطلا، وأنه لا يجد آية واحدة ولا حديثا صحيحا واحدا يستدل بــه على دعواه ، فالعبادة المتجردة عن الرجاء والخوف ليست العبادة التى جاء بها الإسلام .

ثــم لما اطلع أخونا فى اللــه شيخ الإسلام الأستاذ محمد رشيد رضا على ما دار فى المسألة بيننا وبين خصومنا ، كاتبنا بموافقته على ما قلنا ، وذكر لنا ما كان كتبه هو فى المسألة فى الجزء الثانى من تفسير المنار الشهير ، وها نحن ننقل ما كتبه الأستاذ فى المسألة عند تفسير قوله تعــالى : « رَبَّنَــا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً » الآيــة ، إفادة لقرائنا،شاكرين لفضيلته عنايته وتنبيهه .

قال أحسن الله جزاءه :

« ولــم يذكر فى التفسير من لا يطلب إلا حسنة الآخرة ، لأن التقسيم لبيان ما عليه الناس فى الواقع ونفس الأمر بحسب داعى الجبلة وتأثير التربية وهدى الدين . ولا يكاد يوجد فى البشر من

لا تتوجه نفسه إلى حسن الحال فى الدنيا مهما يكن غاليا فى العمل للآخرة ، لأن الإحساس بالجوع والبرد والتعب يحمله كرها على التماس تحقيق ألم ذلك الإحساس ، والشرع يكلفه ذلك بما يقدر عليه من أسبابه ، وقد جعل عليه حقوقا لبدنه ، ولأهله، ولولده ، ولرحمه ، ولزائره ، وإخوانه ، وأمته ، لا تصح عبوديته إلا بدعاء الله تعالى فيها .

وفى الآية إشعار بأن هذا الغلو مذموم خارج عن سنن الفطرة ، وصراط الدين معا . وما نهى الله أهل الكتاب عن الغلو فى الدين وذمهم على التشدد فيه إلا عبرة لنا ، وقد نهانا عنه نبينا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، فى حديث أنس عن البخارى ومسلم أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ دعا رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ المنتوف فقال له : « هل كنت تدعو الله بشىء ؟ » قال نعم كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « سبحان الله، إذا لا تطيق ذلك ولا تستطيعه ، فهلا قلت : « رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ودعا له فشفاه الله تعالى .

وأبعد من هذا فى الغلو أن بعض الصوفية سمع قارئا يتلو قوله تعالى : 3 ، 152 «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» فصاح أواه ، فأين من يريد الله ؟ وهو قول حسن الظاهر قبيح الباطن ، فالآية خطاب لخيار الصحابة ، وهو وشيخه من الصوفية لم يبلغوا مد أحدهم ولا نصيفه ، فإرادة الدنيا والآخرة بالحق إرادة لمرضات الله تعالى، وعمل بسنته وبشرعه ، والمراد بالدنيا فيها الغنيمة فى الحرب ، وبالآخرة الشهادة فى سبيل الله ، فهل يظن بجهله أن من شهد الله تعالى لهم بأنهم بذلوا أنفسهم فى سبيله ونصر رسوله وآثروا الشهادة فى القتال على الغنيمة أنهم

لا يريدون الله ؟ وقد ورد في الصحيح أن الآية كانت أكثر دعاء النبي ـ صلى اللـه عليه وآله وسلم ـ فهـل يدعى ذلك الصوفى وأمثاله من الغلاة أنهم أشد حبا منه لله وطلبا له عز وجل ؟

(أقول) : كلا،إنما هي فلسفة خيالية من خيالات وحدة الوجود البرهمية الهندية ، قد شغل بها أفراد عن فطرة الله وشرعه معا ، فجعلوها أعلى مراتب العبودية ؛ وتأولوا لهـا بعض آيات الكتاب العزيز كقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » وما إرادة وجهه تعالى إلا الإخلاص له في كل عمل مشروع من مصالح الدين والدنيا وتحرى هداية دينية فيه ، لا تخيله من إرادة وجهه تعالى هو الوصول إلى ذاته بعد التجرد من كـل نعمـة في الدنيا والآخرة جميعا ، فإن الاتصال بتلك الـذات العليـا القدسية التي لا تدركها العقـول ولا تدنو من كنهها الأفكار ولا الأوهام ، ما لم يتعلق به تكليف ولم يرد به شرع ، بـل إدراك كنه الذوات المخلوقة لـه تعـالى فـوق استطاعة خلقه ، وإنما أعلى مراتب معرفة الله تعالى في الدنيا هي معرفة كل شيء به ، ومعرفته في كل شيء وبكل شيء ، ودعاؤه بكل اسم مـن أسمائه بما يناسب تعلقه بشؤون عباده ، وبهذا فضـل جمهور أهل السنة خيار البشر على الملائكة الذين يعبد كـل منهم ربه عبادة خاصة ، والمؤمن الكامل من يعرف حق ربه على عباده ، وما شرعه من حقوق بعضهم على بعض ، والقيام في كل ذلك بذكره وشكره وحبه والتوكل عليه والإخلاص له ، وأعلى مراتب معرفته في الآخرة هو مقام الرؤية بتجليه الأعلى في جنات عدن ، والاشتغال بذكر الجزاء عن العمل الموصل إليه جهل لا علم ولا معرفة » .

(1) ش : ج 12 ، م 9 • غرة رجب 1352 هـ ـ نوفمبر 1933 م •